الفصل الثالث

# لماذا لا يزال تجار المخدرات يعيشون مع أمهاتهم؟

لقد بني الفصلان السابقان على زوج من القضايا المعترف بأنها مليئة بالتقلبات: ما هي الأشياء المشتركة بين معلمي المدارس ومصارعي السومو؟ وكيف تتشابه جمعية الكوكلوكس كلان مع الوسطاء العقاريين؟ ولكنك إن سألت أسئلة كافية، مهما تبدو غريبة في حينها، فإنك قد تتعلم في النهاية شيئاً جديراً بالمعرفة.

إن الحيلة الأولى في طرح الأسئلة أن تقرر إن كان سؤالك سؤالاً جيداً. ولمجرد أن يكون السؤال لم يطرح من قبل لا يجعله ذلك سؤالاً جيداً. فقد كان الناس الأذكياء يطرحون أسئلة خلال عدد من القرون، ولايزال هناك أسئلة كثيرة لم تسأل، وهي مصممة لأن تعطي إجابات غير مهمة.

ولكنك إن استطعت أن تسأل عن شيء يهتم به الناس حقاً وتجد إجابة قد تدهشهم ـ أي، إن استطعت أن تقلب الحكمة التقليدية ـ فإنك قد تحظى ببعض الحظ.

كان جون كينيث غالبريث، وهو مثقف كبير وعالم اقتصادي، أول من صاغ عبارة «الحكمة التقليدية»، ولم يعتبر ذلك مدحاً. وكتب: «إننا نربط الحقيقة مع ما يناسب، ومع ما يوافق بصورة وثيقة الاهتمام بالذات وحسن الأحوال الشخصية أو مع ما يعد بصورة أفضل تجنّب الجهد المحرج أو اختلال الحياة غير المرغوب فيها. ونجد أيضاً من المقبول بصورة عالية ما يسهم في تقدير الذات أكثر من أي شيء آخر». فالسلوك الاقتصادي والاجتماعي -يتابع غالبيرث- «معقد، وفهم شخصيته متعب فكرياً. ولذلك نلتصق بتلك الأفكار التي تمثل فهمنا، كما نلتصق بالجدار».

ولذلك فإن الحكمة التقليدية برأي غالبيرث يجب أن تكون بسيطة ومناسبة ومريحة ومواسية ـ على الرغم من أنها ليست صحيحة بالضرورة. وقد يكون من السخف أن نناقش أن الحكمة التقليدية ليست حقيقية أبداً، ولكن بملاحظة أين تكون الحكمة التقليدية غير صحيحة ـ وربما بملاحظة أن المجرى الزلق أو التفكير المهتم بالذات، فإنه مكان مناسب للبدء بطرح الأسئلة.

فكر في التاريخ الحديث للمشردين الذين لامأوى لهم في الولايات المتحدة. في أوائل التسعينيات راح المدافع عن المشردين وهو بيتس سنايدر يقول: يوجد ثلاثة ملايين مشرد أمريكي. وراح الناس يهتمون بذلك، أكثر من شخص من كل مئة شخص هو مشرد، إنها نسبة عالية بالطبع.. ولكن الخبير قال ذلك: لقد ألقيت هذه المشكلة الهادئة إلى الآن فجأة على الوعي القومي.

وشهد سنايدر أمام مجلس الشيوخ حتى حول حجم المشكلة. وذكر ذلك أيضاً مراراً أمام طلاب الكلية أن 45 مشرداً يموتون كل ثانية ـ وهذا يعني أن 1.4 بليون شخص يموتون كل سنة. (وكان عدد سكان الولايات المتحدة حينذاك 225 مليون) وبفرض أن سنايدر قد أخطأ بحديثه أو أنه تم نقل حديثه بصورة خاطئة، وأنه كان يعني أن شخصاً مشرداً واحداً يموت كل 45 ثانية، فيبقى الرقم 701000 شخص يموتون كل سنة وذلك ما يقارب ثلث الوفيات في الولايات المتحدة. وفي النهاية، عندما واجه سنايدر ضغطاً بخصوص عدد المشردين البالغ 3 ملايين، اعترف بأن الرقم مختلق قال: كان الصحفيون يلاحقونه من أجل عدد محدد، ولم يرد أن يدعهم يذهبون خالي الوفاض.

قد يكون من المؤسف، ولكن ليس من المفاجئ أن يستطيع الخبراء مثل سنايدر أن يهتموا بأنفسهم إلى درجة الخداع. لكنهم لايستطيعون أن يخدعوا من تلقاء أنفسهم، فالصحفيون بحاجة ماسة للخبراء، كما يحتاج الخبراء إلى الصحفيين. فهناك صحف ونشرات أخبار تلفازية كل يوم ويجب تعبئتها، والخبير الذي يستطيع أن يقدم شيئاً صارخاً من الحكمة مرحَّب به دائماً. فإذا ما عملوا معاً يكون الصحفيون والخبراء هم المهندسين للحكمة التقليدية.

والإعلان أيضاً أداة ذكية لخلق حكمة تقليدية، فعلى سبيل المثال، اخترع الليسترين في القرن العشرين على اعتباره معقماً جراحياً قوياً. وتم بيعه فيما بعد كشكل مقطر لتنظيف الأرض ولمعالجة داء السيلان. ولكنه لم يكن نجاحاً سريعاً حتى العشرينيات من القرن العشرين عندما برز كمحلول «للبخر المزمن» وهي عبارة غامضة لرائحة الفم الكريهة. وأظهرت الإعلانات الجديدة لمادة الليسترين صوراً لشباب مهجورين ويائسين وهم راغبون في الزواج لكن رائحة أفواه شركائهم أبعدتهم. سألت فتاة نفسها: «هل أستطيع أن أكون سعيدة معه بالرغم من ذلك؟ حتى ذلك الحين، كانت رائحة النفس الكريهة لا تعتبر تقليدياً بأنها كارثة. لكن الليسترين غير ذلك، وكما يكتب عالم الإعلان جيمس ب. تويتشل، «لم يصنع الليسترين غسول الفم بقدر ما صنع رائحة الفم الكريهة». ففي خلال سبع سنوات فقط، ارتفع دخل الشركة من 115000 دولار إلى أكثر من 8 مليون دولار.

تصعب زحزحة الحكمة التقليدية مهما تكن الطريقة التي أوجدت بها. فقد تحسر بول كروغمان وهو كاتب عمود في النيويورك تايمز، والناقد المخلص لجورج بوش، على هذه الحقيقة عندما بدأت حملة إعادة انتخاب الرئيس في أوائل سنة 2004 فقال: «إن القصة المقبولة حول السيد بوش أنه شخص مخادع وأمين ويتكلم ببساطة، وننقل القصص التي تناسب ذلك: ولكن إن كانت الحكمة التقليدية بدل ذلك، فإنه زائف ومحتال، إنه طفل ولد بملعقة فضية في فمه يتظاهر بأنه راعي بقر، يكون لدى الصحفيين مادة كبيرة للتعامل معها.

في الأشهر التي سبقت غزو الولايات المتحدة للعراق سنة 2003، كان الخبراء المتصارعون يؤيدون نبوءات مضادة حول أسلحة الدمار الشامل موجودة عند العراق، ولكن في معظم الأحيان لابد من أن يفوز جانب في حرب الحكمة التقليدية كما حصل مع «إحصائيات» سنايدر حول المشردين، ودعاة حقوق المرأة، فهم مثلاً، قاموا بتأجيج حادثة التحرش الجنسي، مدعين أن واحدة من كل ثلاث

نسوة أمريكيات ستكون ضحية اغتصاب أو محاولة اغتصاب في حياتها، (الرقم الحقيقي هو أقل من 1 من أصل ثمانية ـ لكن الدعاة يعرفون أن مخالفة ادعاءاتهم علناً تحتاج إلى شخص صلب وقاسٍ). والدعاة الذين يعملون لمعالجة الأمراض المأساوية المختلفة يقومون بمثل هذه الأعمال بشكل منتظم. ولم لا؟ إن كذبة صغيرة تستطيع لفت الانتباه والسخط و- ربما المهم أكثر ـ المال ورأس المال السياسي لمعالجة المشكلة الحقيقية.

طبعاً، يميل الخبير، سواء أكان داعية لصحة النساء أم مستشاراً سياسياً أم مديراً تنفيذياً للإعلان، لأن يكون حوافز تختلف عن باقي الناس.

اعتَبِرْ بالشرطة، فقد اكتشف مدقق أن الشرطة في أتلانتا قلما نقلت الجريمة بصورة جذرية منذ أوائل التسعينيات. وبدأت هذه الممارسة بصورة ظاهرة عندما كانت أتلانتا تستعد لاستضافة الألعاب الأولمبية لعام 1996. واحتاجت المدينة لإخفاء صورتها العنيفة والسريعة، ولذا في كل سنة كانت آلاف الجرائم تنخفض إلى درجة أدنى من العنيفة إلى غير عنيفة، أو ببساطة تهمل بعيداً، (وعلى الرغم من الجهود المستمرة ـ فقد أكثر من 22000 تقرير شرطي في سنة 2002 وحدها ـ وبصورة منتظمة كانت أتلانتا تأتي بين أكثر المدن عنفاً).

في ذلك الوقت، كانت الشرطة في المدن الأخرى تنسج قصة خلال سنوات التسعينيات. فقد جعل الظهور المفاجئ والعنيف للاتجار بالكوكائين مديريات الشرطة في أنحاء البلاد تبحث عن المصادر. فجعلوا من المعروف أن تلك لم تكن معركة عادلة: فتجار المخدرات كانوا مسلحين بأسلحة حديثة وموارد لا قاع لها من النقود. وهذا التأكيدُ على النقود أثبت أنه جهد رابح، ولاشيء أغضب الناس الممثلين للقانون أكثر من صورة تاجر المخدرات المليونير. ووسائل الإعلام التي تخطف بلهفة هذه القصة، إذ يصورون التعامل بالمخدرات كعمل أكثر ربحاً في أمريكا.

ولكن إن كان لابد من أن تمضي بعض الوقت حول مشروع سكني، حيث تباع المخدرات، فإنك قد تلاحظ شيئاً غريباً: لايزال معظم تجار المخدرات يعيشون

في المشاريع، وليس هذا فحسب، ولكن معظمهم لايزالون يعيشون في البيت مع أمهاتهم، ومن ثم يحتمل أنك حككْت رأسك وقلت: «ما هذا؟».

ويكمن الجواب في إيجاد المعطيات الصحيحة، والسر في إيجاد المعطيات الصحيحة عادة يعني إيجاد الشخص الصحيح، وهذا أسهل أن يقال من أن يفعل. ومن النادر أن يتدرب في الاقتصاد، ونادراً ما يتطرق الاقتصاديون إلى تجار المخدرات. لذا فإن الإجابة عن هذا السؤال تبدأ بإيجاد الشخص الذي يمكن أن يعيش بين تجار المخدرات وينجح بالخروج، ومعه أسرار مهنتهم.

ولد سودير فينكاتيش Sudhir venkatesh ـ وكان أصدقاء طفولته ينادونه: سيد، ولكنه استعاد منذ ذلك الحين اسم سودير ـ في الهند، وترعرع في ضواحي شمالي نيويورك وجنوبي كاليفورنيا، وتخرج في جامعة كاليفورنيا في سانديغو بإجازة في الرياضيات. وبدأ في عام 1989 بمتابعة شهادة الدكتوراة في علم الاجتماع في جامعة شيكاغو. وكان مهتماً بفهم كيف يشكل الشباب هوياتهم (شخصياتهم)؛ ومن أجل ذلك، أمضى ثلاثة أشهر فقط يلاحق (الميت الممتن Dead Grateful) في البلاد. وما لم يكن مهتماً به هو ميدان العمل القاسي الذي يحدد علم الاجتماع.

لكن أستاذه المشرف، كان العالم ويليام جوليوس ويلسون، أرسل فينكاتيش إلى هذا الحقل، وكانت مهمته: زيارة أفقر منطقة سوداء في شيكاغو ومعه دفتر ملاحظات ومعه سبعون سؤالاً، واستطلاع فيه خيارات متعددة. وكان هذا أول سؤال في هذا الاستطلاع:

ما هو شعورك حول كونك أسود وفقيراً؟

أ ـ سيء جداً.

ب ـ سيء.

ج ـ لاسيء ولا جيد.

د ـ جيد نوعاً ما.

هـ ـ جيد جداً.

في أحد الأيام مشى فينكاتيش حوالي عشرين شارعاً فرعياً من الجامعة إلى مشروع سكني يقوم على شاطئ كبير لبحيرة ميتشيغان، ليجري استبيانه. وكان المشروع مؤلفاً من ثلاثة أبنية في كل منها ستة عشر طابقاً مبنية من الآجر الأصفر. وسرعان ما اكتشف فينكاتيش أن الأسماء والعناوين المعطاة له قد عفى عليها الزمان تماماً، فهذه الأبنية غير صالحة وهي مهجورة عملياً. كانت بعض العائلات تسكن الطوابق السفلية وتسرق الماء والكهرباء، لكن المصاعد لم تكن تعمل. وكذلك لم تعمل أنوار بيت الدرج. وكان الوقت بعض الظهر في أوائل الشتاء، وبدأ الظلام يحل في الخارج.

شق فينكاتيش وهو شخص وسيم ومفكر وجسمه مبني جيداً وبطريقة طبيعية وشجاع، طريقه إلى الطابق السادس، وهو يحاول أن يجد شخصاً ما؛ ليأخذ الاستبيان.

وفجأة، أدهش على المشى في بيت الدرج، مجموعة من المراهقين يرمون بالزهر، وتبين أنهم عصابة من صغار تجار المخدرات الذين يعملون في خارج البناء، ولم تسعدهم رؤيته.

وتمتم فينكاتيش وهو يتمسك بنص استبيانه: «إنني طالب في جامعة شيكاغو، وأجري.. «اغرب عنّا أيها الزنجي، ماذا تفعل هنا في بنائنا؟».

وكانت تدور حرب عصابات في شيكاغو. وكانت الأمور عنيفة في المدة الأخيرة، مع إطلاق نار في كل يوم تقريباً. وكانت هذه العصابة، وهي فرع من «عصابة مريد الأمة الأسود» مهتاجة وسريعة الغضب، ولم يعرفوا ماذا يفعلون بفينكاتيش، إذ لا يبدو عليه أنه من عصابة منافسة، ولكنه قد يكون جاسوساً؟ وبالتأكيد لم يكن شرطياً، ولم يكن أسودَ ولم يكن أبيض، ولم يكن مهدداً بمعنى الكلمة ـ كان مسلحاً ولكن بمسند للكتابة فقط ـ ولكنه لم يكن يبدو أنه ليس خطراً

أيضاً. وبسبب متابعته لعصابة «الميت الممتن» لمدة ثلاثة أشهر، لا يزال يبدو، كما قال فيما بعد، (مثل غريب أصيل ذي شعر منسدل على ظهره حتى قفاه).

بدأ أعضاء العصابة يناقشون ماذا يجب فعله مع فينكاتيش، أنتركه يذهب؟ لكنه إن أخبر العصابة المنافسة عن هذا المكان في بيت الدرج، فيحتمل أن تقوم بهجوم مفاجئ. وقد كان أحد الأعضاء عصبياً ويهز بيده شيئاً إلى الأمام والخلف ـ في الضوء الخافت وعرف فينكاتيش أخيراً أن بيده مسدساً ـ وتمتم: «اتركوه لي ـ اتركوه لي». وكان فينكاتيش خائفاً جداً.

وازداد الجمع وأصبح أكبر، ويصدر أصواتاً أعلى. ومن ثم ظهر عضو عصابة كبير، وأخذ مسند الكتابة من يدي فينكاتيش، وعندما رأى أنها استمارة مكتوبة نظر محتاراً.

قال: لا أستطيع أن أقرأ شيئاً من هذا الهراء.

ورد عليه أحد المراهقين: «ذلك لأنك لاتستطيع القراءة» وضحك الجميع من العضو الكبير.

وطلب من فينكاتيش أن يتابع ويطرح سؤالاً عليه من الاستبيان، فبدأ فينكاتيش بسؤال ما هو شعورك وأنت أسود وفقير؟ وقوبل السؤال بجولة من القهقهة، وبعضهم أكثر غضباً من بعضهم الآخر. وكما سيخبر فينكاتيش زملاءه في الجامعة فيما بعد، أدرك أن الخيارات المتعددة للإجابات من أ إلى د لم تكن كافية. وبالواقع لقد عرف الآن أن الإجابات يجب أن تكون كما يلي:

أ ـ سيء جداً.

ب ـ سيء.

ج ـ لاسيء ولا جيد.

د ـ جيد نوعاً ما.

هـ- جيد جداً.

وـ اعزب عنا.

وعندما كانت الأشياء تبدو في أسوأ حال بالنسبة لفينكاتيش ظهر رجل آخر. وكان هذا جي تي رئيس العصابة. أراد جي تي رئيس العصابة أن يعرف ماذا كان يجري. وبعد ذلك طلب من فينكاتيش أن يقرأ عليه سؤال الاستبيان. وأصغى لكنه قال بعد ذلك: إنه لايستطيع الإجابة؛ لأنه لم يكن أسود.

فقال فينكاتيش: «حسناً إذن، ما هو شعورك لكونك إفريقياً أمريكياً فقيراً؟».

فأجاب جي تي: «إنني لست إفريقياً أمريكياً أيضاً، أيها الأحمق، إنني زنجي» ومن ثم قدم جي تي درساً حيوياً وودياً بالتصنيف: «الزنجي» مقابل «الأمريكي الإفريقي» وضد «الأسود». وعندما انتهى خيم صمت محير، وظل الأمر، إذ لايعرف أحد ماذا سيفعلون بفينكاتيش. وهدأ جي تي، الذي كان في أواخر العشرينيات من العمر: الذين كانوا دونه، لكنه لم يكن يريد أن يتدخل مباشرة بأسيرهم. خيم الظلام وذهب جي تي. وقال المراهق العصبي: «لايخرج الناس من هنا أحياء» ومسدسه بيده وقال لفينكاتيش: «إنك تعرف ذلك، أليس كذلك؟».

وعندما اشتد الظلام، تساهل الآسرون. فأعطوا فينكاتيش واحداً من مشروبهم (البيرة) ومن ثم أعطوه شراباً آخر، ومن ثم آخر. وعندما أراد أن يتبول، ذهب إلى حيث يذهبون، على شرفة بيت الدرج في الطابق الأعلى. وتوقف جي تي بضع مرات خلال الليل، لكنه لم يكن لديه الكثير ليقوله. وجاء الفجر، ومن ثم الظهيرة. ويحاول فينكاتيش بين الفينة والأخرى مناقشة استبيانه، لكن تجار المخدرات الصغار كانوا يضحكون فقط ويخبرونه عن غباء أسئلته. وأخيراً، مر ما يقرب من أربع وعشرين ساعة على تعثر فينكاتيش بهم، فأطلقوا سراحه.

ذهب إلى البيت واستحم. فقد شعر بالخلاص لكنه كان قلقاً ؛ وخطر لفينكاتيش أن معظم الناس، بمن فيهم هو ذاته، لم يفكروا قط بالحياة اليومية لمجرمي الأقليات المحرومة. وكان الآن تواقاً لمعرفة كيف يعمل «المريدون السود» من القمة إلى أسفل الهرم.

وبعد بضع ساعات، قرر أن يعود إلى مشروع المساكن. وفي هذا الوقت قد فكر في بعض أسئلة أفضل ليطرحها، بعد ما رأى أولاً أن الحكمة التقليدية لجمع المعطيات في هذه الحالة سخيفة، أقسم فينكاتيش أن ينبذ استمارته وأن يثبت نفسه مع العصابة. فراح يتابع جي تي وأبلغه مخططاً لمشروعه. وظن جي تي أن فينكاتيش مجنون، بصورة حرفية ـ طالب جامعة يريد أن ينتقل إلى عصابة مخدرات! لكنه في الوقت نفسه أعجبه ما يريده فينكاتيش. وكما جرى الأمر، فقد كان جي تي نفسه خريج جامعة من قسم الأعمال، وبعد الكلية التحق بشركة لوب وعمل في قسم التسويق في الشركة التي تبيع معدات مكتبية، لكنه شعر أنه غريب في ذلك المكان ـ كونه رجلاً أبيضاً يعمل في قيادة أفروشاهين، وكان يجب أن يقول لدرجة أنه ترك العمل. لكنه لايزال يذكر ما تعلمه، وعرف أهمية جميع المعطيات وإيجاد أسواق جديدة، وكان دائم البحث عن إستراتيجيات إدارية أفضل. فلم يكن من المصادفة، بعبارة أخرى، أن جي تي كان رئيس عصابة المخدرات هذه. فقد تربى ليكون رئيساً.

وبعد جدال وعد جي تي فينكاتيش بالوصول إلى معلومات مريحة وخالية من المسؤولية مادام جي تي يحتفظ بحق النقض حول أي معلومات لن تكون ضارة إذا ما نشرت.

وعندما هدمت الأبنية الرمادية الصفراء على شاطئ البحيرة بعد زيارة فينكاتيش بوقت قصير، انتقلت العصابة إلى مشروع مساكن آخر أعمق في جنوب مدينة شيكاغو. وفي السنوات الست المقبلة، عاش فينكاتيش هناك تقريباً، وتحت حماية جي تي راقب أعضاء العصابة عن قرب وهم يعملون، وفي بيوتهم. وسأله أسئلة لانهاية لها. وكان أعضاء العصابة في بعض الأحيان يساورهم القلق من فضوله؛ وفي معظم الأحيان كانوا يستغلون رغبته بالاستماع. فأخبره أحد التجار: «هناك حرب في الخارج يارجل. وأقصد أن الناس في كل يوم يصارعون من أجل العيش، كما تعلم، فإننا نعمل ما نستطيع

عمله فليس أمامنا أي خيار، وإن كان هذا يعني أننا قد نقتل، فلا يهم، فهذا ما يفعله الزنوج هنا ليعيلوا عائلاتهم».

وكان فينكاتيش ينتقل من عائلة إلى أخرى وهم يغسلون أطباق الطعام وينامون على الأرض. وكان يجلب الألعاب لأطفالهم؛ وشاهد ذات مرة امرأة تستخدم صدارة طفل لتمسح دم تاجر مخدرات مراهق، وقد أعدم أمام فينكاتيش. وكان وليام جوليوس ويلسون من جامعة شيكاغو يحلم بكوابيس منتظمة بالنيابة عن فينكاتيش.

ومع مرور السنين تحملت العصابة حروباً دموية واتهاماً اتحادياً في النهاية. وكان عضو اسمه بوتي ورتبته أدنى من رتبة جي تي قد جاء بقصة. إذ وجهت العصابة اللوم إلى بوتي، لأنه سبب الاتهام، وأخبر فينكاتيش، ولذلك يشك في أنه سيقتل قريباً. ولأن كل أحاديث العصابة حول كيفية المتاجرة بالمخدرات لم تجلب أي ضرر وهم يحبون التفاخر بأنهم احتفظوا بمال السود في مجتمع السود فكان بوتي يشعر أنه مذنب. وأراد أن يترك وراءه شيئاً قد يفيد بطريقة ما الجيل الآتي.

وسلم فينكاتيش كومة من دفاتر الملاحظات السلكية البالية باللون الأزرق والأسود وهذا هو شعار العصابة. وتمثل هذه الدفاتر سجلاً كاملاً للعمليات المالية للعصابة خلال أربع سنوات. وبتوجيه من جي تي تم جمع السجلات بشكل صحيح: المبيعات، والأجور والرسوم وحتى مكافآت الموت التي دفعت إلى عائلات الأعضاء الذين قتلوا.

في البداية، لم يكن فينكاتيش يريد هذه الدفاتر. ماذا سيحدث لو اكتشفها الاتحاديون، ربما يوجه إليه اتهام أيضاً، وإضافة إلى ذلك، ماذا يفترض أن يفعل بهذه المعطيات؟ فعلى الرغم من خلفيته الجيدة في الرياضيات، إلا أنه قد توقف منذ زمن طويل عن التفكير بالأرقام.

بعد استكمال أعمال التخرج في جامعة شيكاغو، منح فينكاتيش البقاء في جمعية زملاء هارفارد لمدة ثلاث سنوات. فبيئتها التفكير الحاد وسلامة الطوية ـ فطبقات خشب الجوز وعربة الشيري التي امتلكها ذات مرة أوليفر ويندل هولمس ـ جعلت فينكاتيش مسروراً.

وراح يتقدم إلى أن يصبح مضيف نبيذ الجمعية. لكنه كان يغادر كامبريدج بانتظام ويعود المرة تلو الأخرى إلى عصابة المخدرات في شيكاغو وجعل هذا البحث الميداني (في الشارع) فينكاتيش شيئاً ذا غرابة. فمعظم الزملاء الشباب الآخرين كانوا يتصفون بأنهم عقلانيون ويحبون التلاعب بالألمانية.

كان أحد أهداف الجمعية جمع العلماء من الميادين المختلفة الذين قد لايجدون فرصة للاجتماع لولا هذا. فقابل فينكاتيش زميلاً غريباً آخر لا ينطبق عليه نمط الجمعية. وصادف أن هذا الزميل اقتصادي يفضل قائمته الخاصة غير العادية من الفضول، عوضاً عن التفكير بالأفكار العظيمة في الاقتصاد الكبير، وعلى قمة قائمته هذه تأتي الجريمة. وهكذا، خلال عشر دقائق من اجتماعهم، أخبر سودير فينكاتيش ستيفن ليفيت عن دفاتر الملاحظات السلكية من شيكاغو، فقررا التعاون على ورقة عمل. فتكون المرة الأولى التي يقع فيها مثل هذه المعطيات الثمينة بين يدي اقتصادي، ليقدم تحليلاً للعمل الجنائي المجهول حتى الآن.

إذن، كيف تعمل العصابة؟ عدد مخيف من الناس يحبون معظم الشركات الأمريكية، وبالفعل على الرغم من أنه ما من شركة أكثر شهرةً من ماكدونالد، إلا أنك إذا أمسكت بمخطط تنظيمي لشركة ماكدونالد وبمخطط تنظيمي لعصابة للمزيد من السود جنباً إلى جنب، فإنك قد لا تستطيع أن تجد الفرق.

والعصابة التي وقع فيها فينكاتيش كانت ذات مئة فرع ـ وهي شركات بامتياز حقاً ـ وهي منظمة أكبر من المريدين السود. جي تي وهو رئيس ذو ثقافة جامعية لشركة بامتياز، مسؤول أمام قيادة مركزية مؤلفة من عشرين رجلاً وكان يسمى،

دون أي سخرية، مجلس المديرين. (وفي الوقت ذاته كان سكان الضواحي البيض يقلدون بصورة جدية ثقافة أحياء الأقلية الطوارق السوداء، وكان مجرمو حي الأقلية السوداء يقلدون بصورة جدية آباء سكان الضواحي). ودفع جي تي لمجلس المديرين ما يقرب من 20٪ من دخله مقابل حق بيع المخدرات في منطقة مؤلفة من 12 مجمعات مربعة. وباقي المال كله؛ ليقوم بتوزيعه كما يرى مناسباً.

وكان ثلاثة مسؤولين أمام جي تي: المنفذ (وهو الشخص الذي يضمن سلامة أعضاء العصابة)، والخازن (وهو الشخص الذي يشرف على الأموال السائلة للعصابة)، والعداء (وهو من ينقل كميات كبيرة من المخدرات والمال من المورد وإليه). ويأتي تحت المسؤولين البائعون في الشارع وكانوا يعرفون بجنود المشاة. وكان هدف جندي المشاة إلى يوم ما أن يصبح مسؤولاً. وقد يكون لدى جي تي ما بين خمس وعشرين وخمس وسبعين من جنود المشاة في جدول رواتبه في أي وقت، ويعتمد ذلك على فصل السنة (كان الخريف هو الموسم المفضل لبيع المخدرات؛ وكان موسم الصيف وأعياد الميلاد موسماً منخفضاً)، وعلى حجم أرض العصابة (وقد تتضاعف هذه الأرضية عندما يخطط المريدون السود لاحتلال أرض عصابة منافسة). وفي قاع منظمة جي تي وجد ما يقرب من مئتي عضو يعرفون باسم المرتبة والملف. لم يكونوا مستخدمين قط. لكنهم دفعوا الرسوم (الإتاوة) إلى العصابة، بعضهم للحماية من العصابات المنافسة، وآخرون لفرصة الحصول على مهمة جندي مشاة في النهاية.

والسنوات الأربع المسجلة في دفاتر العصابة تصادفت مع سنوات القمة في ازدهار المخدرات، وكان الشغل ممتازاً. ولقد ازداد دخل الشركة بامتياز أربع مرات خلال هذه المدة. ففي السنة الأولى، حصلت على معدل وسطي بلغ 18500 دولار في كل شهر؛ وفي السنة الأخيرة كانت تجمع 68400 دولار شهرياً. وفيما يلي نظرة على المداخيل الشهرية في السنة الثالثة:

| | |
|---|---|
| مبيعات المخدرات | 24800 دولار |
| رسوم | 5100 |
| ضرائب فوق العادة | 2100 |
| مجموع الدخل الشهري | 32000 دولار |

وتمثل «مبيعات المخدرات» الأموال من تجار الكوكائين. وسمحت العصابة لبعض أعضاء الرتبة والملف لأن يبيعوا الهيروين في منطقتهم، لكنها قبلت برسم ترخيص ثابت مقابل حصة من الأرباح. (وكانت هذه أموال خارج الدفاتر وراحت مباشرة إلى جيب جي تي؛ وربما أخذت من مصادر أخرى أيضاً).

وجاءت الرسوم 5100 دولار من الأعضاء المرتبة والملف فقط، ذلك لأن أعضاء العصابة الكاملين لم يدفعوا أي رسوم والضرائب فوق العادة دفعتها شركات أخرى عملت في منطقة العصابة، بما في ذلك محلات البقالة وعربات الغجر، والقوادون والأشخاص الذين يبيعون السلع المسروقة أو يصلحون السيارات في الشارع.

والآن هاهنا تكاليف جي تي بعد استبعاد الأجور لإدخال 32000 دولار شهرياً.

| | |
|---|---|
| كلفة المخدرات مبيع بالجملة | 5000 دولار |
| رسم مجلس المديرين | 5000 دولار |
| مقاتلون مرتزقة | 1300 دولار |
| أسلحة | 300 دولار |
| متفرقات | 2400 دولار |
| مجمل التكاليف الشهرية من غير الأجور | 14000 دولار |

لم يكن المقاتلون المرتزقة أعضاء ويستأجرون بعقود لمدة قصيرة؛ ليساعدوا في خوض حروب العصابة، دفاعاً عن أراضيها وكلفة السلاح هنا قليلة؛ لأن عصابة المريدين السود تعقد صفقة جانبية مع موردي الأسلحة المحليين الذين

يساعدون في تفتيش الجوار؛ لقاء أسلحة مجاناً أو محسومة حسماً كبيراً. والنفقات المتفرقة تشمل رسوماً قضائية وحفلات ورشاوى و «أحداث المجتمع» التي تشرف عليها العصابة. (بذلت عصابة المريدين السود جهداً كبيراً؛ لتبدو عموداً لمجتمع المشروع السكني، بدلاً من سوط). وشملت النفقات المتفرقة أيضاً النفقات المتعلقة بمقتل عضو العصابة. فلم تدفع العصابة نفقات الجنازة فقط، لكنها تدفع نفقة تبلغ أجور ثلاث سنوات إلى عائلة الضحية. سأل فينكاتيش ذات مرة: لماذا تكون العصابة سخية في هذا المجال. فكان الجواب: «هذا سؤال غبي ومزعج؛ لأنه مادمت معنا، فإنك لاتفهم أن عائلاتهم هي عائلاتنا. ولانستطيع تركهم خارجاً، ونحن نعرف هؤلاء الأشخاص طيلة حياتنا، يا رجل، لذا فإننا نحزن عندما يحزنون. فعليك احترام العائلة». وكان هناك سبب آخر لمساعدات الوفاة؛ إذ كانت العصابة تخشى رد فعل معاد (فعملها بكل بساطة عمل تخريبي) ويظن أنها تستطيع شراء بعض النوايا الحسنة؛ لقاء مئات من الدولارات تنفق هنا وهناك.

وباقي الأموال التي أخذتها العصابة تذهب إلى أعضائها، بدءاً من جي تي. وهنا فقرة بسطر واحد في ميزانية العصابة جعلت جي تي أسعد إنسان:

| | |
|---|---|
| ربح شهري صاف يصرف للقائد | 8500 دولار |

وبراتب جي تي الشهري 8500 دولار يبلغ راتبه السنوي 100000 دولار من دون ضرائب طبعاً، ولايشمل الأموال التي يتلقاها من خارج الدفاتر. وهذا أكثر من المال الذي كسبه في وظيفته التي لم تطل في مكتب شركة اللوب. وجي تي واحد مما يقرب من مئة قائد بهذا المستوى في شبكة المريدين السود. لذا كان هناك بالفعل بعض تجار المخدرات الذين استطاعوا العيش بهذه السعة الكبيرة ـ في حالة مديري مجلس العصابة ـ، فكل واحد من العشرين رئيس في القمة كانوا يكسبون ما يقرب من 500000 دولار في السنة.

(لكن ثلثهم كانوا يسجنون بشكل طبيعي في أي وقت، وهذا هبوط مهم لوظيفة عالية في أي صناعة مكشوفة).

وهكذا، فإن 120 رجلاً في قمة هرم المريدين السود يدفع لهم بشكل جيد، لكن الهرم الذي يجلسون على قمته ضخم. وإذا أخذنا شركة الامتياز لجي تي كمسطرة ـ فإن ثلاثة مسؤولين ومايقرب من 50 جندي مشاة ـ كان هناك 5300 رجل يعملون لهؤلاء القادة المئة والعشرين. ومن ثم هناك 20000 عضو غير مأجورين من الرتبة والملف، وكثير منهم لم يكونوا يريدون شيئاً أكثر من فرصة ليصبحوا جُنداً مشاة، بل وحتى كانوا يرغبون بدفع رسوم العصابة؛ ليكون لهم فرصهم.

وما هو مدى ما يدفعه العمل الحلم هذا؟ هنا مجموعات شهرية للأجور التي دفعها جي تي لأعضاء عصابته:

| | |
|---|---|
| مجموعة أجور دفعت للمسؤولين الثلاثة | 2100 دولار |
| مجموع أجور دفعت لجنود المشاة | 7400 دولار |
| مجموع الأجور الشهرية للعصابة (من دون القائد) | 9500 دولار |

وهكذا؛ فقد دفع جي تي إلى عماله مبلغ 9500 دولار رواتب شهرية مجموعة، وهذا يزيد عن مرتبه الشهري الرسمي بألف دولار فقط. ويبلغ الأجر الساعي لجي تي 66 دولاراً. بينما يأخذ كل من المسؤولين الثلاثة عنده 700 دولار بالشهر الواحد. وهذا يعني مقدار 7 دولارات بالساعة. وكسب جندي المشاة 30.3 دولاراً بالساعة فقط، أي أقل من الحد الأدنى للأجور. وهكذا تكون الإجابة عن السؤال الأصلي، وهو إذا كان تجار المخدرات يكسبون هذا القدر من المال. فلماذا لا يزالون يعيشون مع أمهاتهم؟ ـ هل لأنهم ـ باستثناء القطط الكبار، لا يكسبون مالاً كثيراً، فلا يكون أمامهم خيار آخر سوى أن يعيشوا مع أمهاتهم. فبالنسبة

لكل كاسب كبير، هناك مئات يعيشون على الفتات. يمثل المئة والعشرون شخصاً في قمة عصابة مريدين السود مقدار 2.2 ٪ من الأعضاء الناضجين والمليئين في العصابة، ولكنهم يأخذون معهم أكثر بكثير من نصف المال.

بعبارة أخرى، تعمل عصابة المخدرات بشكل جيد يشبه الشركة الرأسمالية القياسية: وعليك أن تكون قريباً من قمة الهرم؛ لتأخذ أجراً كبيراً. وبغض النظر عن خطاب القيادة حول الطبقة العائلية للعمل، فإن أجور العصابة منحرفة انحراف الأجور في شركة أمريكية، فأشياء مشتركة كثيراً بين جندي المشاة وعامل الهمبرغر لدى ماكدونالد أو عامل صف البضاعة على الرفوف لدى شركة وول ماركت.

وفي الواقع إن معظم جنود المشاة لدى جي تي يأخذون وظائف بالحد الأدنى للأجور في القطاع القانوني لاستكمال معاشاتهم الصغيرة. وقد أخبر قائد عصابة مخدرات آخر ذات مرة فينكاتيش أنه يستطيع أن يدفع أكثر بسهولة لجنود المشاة، ولكن لن يكون ذلك أمراً حكيماً. «فسيبقى كل هؤلاء الزنوج الذين هم دونك يريدون وظيفتك، أليس كذلك؟ لذا، أنت تعرف أنك تحاول أن تهتم بهم، ولكن كما تعرف، عليك أيضاً أن تريهم أنك أنت الزعيم، وعليك أن تأخذ حصتك أولاً، وإلا فإنهم يعتقدون أنك لست القلعة، فإذا بدأت تتحمل الخسارة، فإنهم يرون أنك ضعيف وما تفعله هراء.

وإلى جانب الدفع السيء، يواجه جنود المشاة ظروف عمل خطيرة. فبالنسبة للمبتدئين، يتعين عليهم أن يُنفوا في زاوية الشارع طوال النهار، وأن يقوموا بعمل مع المعتوهين. (ويحذر أعضاء العصابة تحذيراً قوياً من ألاّ يستخدموا المنتج شخصياً، والنصيحة مدعومة بالضرب إذا لزم الأمر.) ويخاطر الجنود المشاة باحتمال الاعتقال والعنف، وهو ما يقلق. وباستخدام الوثائق المالية للعصابة وبقية بحث فينكاتيش، من الممكن إعادة تركيب جدول أحداث معاكسة لعصابة جي تي خلال السنوات الأربع موضوع البحث. إن النتائج كئيبة بشكل مدهش،

فإن كنت عضواً في عصابة جي تي خلال السنوات الأربع كلها فها هو المصير النمطي الذي كنت ستواجهه خلال تلك المدة.

| | |
|---|---|
| عدد مرات الاعتقال | 5.9 |
| عدد الإصابات غير المميتة والجروح (فيما عدا الإصابات التي تأتي من العصابة نفسها لمخالفة قوانينها) | 2.4 |
| فرص القتل | 1 من 4 |

إن فرصة أن يقتل المرء هي 1 من 4، قارن هذه الفرص بكون المرء يعمل حطاباً، وهي التي تدعوها إحصائيات مكتب العمل بأخطر عمل في الولايات المتحدة. فخلال أربع سنوات، يحتمل الحطاب فرصة 1 من 200 لأن يقتل. أو قارن تجار المخدرات مع صف نزلاء السجن الذين يموتون في تكساس، وهي الولاية التي تعدم سجناء أكثر من أي ولاية أخرى. ففي 2003 أعدمت تكساس أربعة وعشرين سجيناً ـ أو فقط 5٪ من أصل 500 سجين ينتظرون الإعدام في ذلك الوقت.

وهذا يعني أنك تنتظر فرصة أكبر للموت وأنت تتاجر بالمخدرات في مشروع المساكن في شيكاغو من انتظار في صف الموت في تكساس.

وهكذا إن كانت تجارة المخدرات هي العمل الأكثر خطورة في أمريكا، وإن كان الراتب هو 3.3 دولارات بالساعة، فبحق السماء لماذا يرغب أي شخص باتخاذ هذا العمل؟

حسناً، لهذا السبب نفسه، فإن تلك الفلاحة الجميلة من ويسكانسن تنتقل إلى هوليود، وللسبب ذاته أيضاً يستيقظ لاعب كرة القدم في المدرسة الثانوية الساعة الخامسة صباحاً؛ ليرفع الأثقال.

إنهم جميعاً يريدون أن ينجحوا في ميادين التنافس المتطرف التي يصلون بها إلى القمة، ويدفع لهم ثروات (ولنتوقف عن قول أي شيء من النصر والقوة التي تنتظرهم).

بالنسبة للأطفال الذين يتربون في المشروع السكني في الجانب الجنوبي من شيكاغو، كانت تجارة المخدرات مهنة رائعة. وبالنسبة للكثيرين منهم كانت مهنة رئيس عصابة ـ التي ينظر إليها على أنها عالية ومربحة مالياًـ بكل بساطة أفضل عمل يظنون أنهم سيصلون إليه. هل كبروا في ظروف مختلفة؟ ربما فكروا في أنهم يصبحون اقتصاديين أو كتاباً. ولكن في المنطقة التي عملت بها عصابة جي تي، كان الطريق إلى عمل قانوني وشريف غير مرئي عملياً. 56٪ من أطفال المنطقة كانوا يعيشون تحت خط الفقر( بالمقارنة مع النسبة 18٪ المعدل الوسطي القومي ). 78٪ منهم جاؤوا من بيوت ذات والد واحد. وأقل من 5٪ من بالغي المنطقة يحملون درجة معينة؛ ومجرد واحد من ثلاثة رجال بالغين كانوا يعملون فقط. ومتوسط دخل المنطقة قرابة 15000 دولار بالسنة، وهو أقل من نصف معدل الدخل في الولايات المتحدة. وخلال السنوات التي عاش فينكاتيش مع عصابة جي تي، كان جنود المشاة يطلبون مساعدته في عملهم بما يسمونه «عملاً جيداً» أي يعملون كحارس في جامعة شيكاغو.

ومشكلة العمل في تجارة المخدرات هي ذاتها في أي عمل رائع آخر: فكثير من الناس ينافسون من أجل جوائز أقل قليلاً. فكسب المال الكثير في عصابة المخدرات لم يكن أكثر احتمالاً من الفلاحة التي أصبحت نجمة سينمائية أو لاعب كرة القدم في المدرسة الثانوية يلعب في اتحاد كرة القدم القومي.

لكن المجرمين، مثل أي شخص آخر، يستجيبون لحوافزهم. لذا إن كانت الجائزة كبيرة تماماً، فإنهم سيشكلون خطاً في الشارع ويأملون بفرصة. في الجانب الجنوبي من شيكاغو، الناس الذين يريدون بيع المخدرات يزيد عددهم زيادة كبيرة عن زوايا الشارع الموجودة.

اصطدم أسياد المخدرات بقانون العمل الثابت عندما يوجد عدد كبير من الناس يرغبون في القيام بعمل ما ويستطعون ذلك، فإن ذلك العمل لايدفع أجراً كبيراً بشكل عام. وهذا واحد من العوامل الأربعة التي تقرر الأجر والعوامل الأخرى، وهي المهارات الخاصة التي يتطلبها العمل، وفظاعة العمل، والطلب على الخدمات التي يحققها العمل.

يساعد هذا التوازن الدقيق بين هذه العوامل في شرح السبب، فعلى سبيل المثال، تكسب البغِيّ مالاً أكثر من المهندس العادي. ولايبدو أنها رغم ذلك ينبغي أن تكسبه. ويبدو المهندس أنه أكثر مهارة (كم يظهر من تعريف الكلمة) وأكثر ثقافة (ومرة أخرى كما يبدو من تعريف الكلمة). لكن الفتيات الصغيرات لا تتمون وهن تحلمن بأن يصبحن بغِيّات، لذلك فتوريد البغيات المحتملات يبقى صغيراً نسبياً. ومهاراتهن، وهي غير«اختصاصية» بالضرورة، تتم ممارستها في مجال مختص تماماً. المهنة كريهة ومقززة بطريقتين مهمتين على الأقل: احتمال العنف وضياع فرصة تكوين حياة عائلية مستقرة. وأما بالنسبة للطلب، فدعنا نقل: إن المهندس أكثر احتمالاً للاستئجار أكثر من احتمال استئجار البغي لمهندس.

في المهن المبهرة ـ السينما والرياضة والموسيقى والأزياء ـ هناك تباين دينامي في العمل. وحتى في المهن الرائجة من الدرجة الثانية مثل الطباعة والنشر والإعلان ووسائل الإعلام، فإن مجموعات من الشباب يلقون بأنفسهم في المهن القابعة التي تدفع القليل وتطالب بالمحبة والتكريس غير المحدود. فمساعد رئيس التحرير الذي يكسب 22000 دولار في دار نشر في مانهاتن، ولاعب كرة القدم الذي لايدفع له شيء، وتاجر المخدرات المراهق الذي يكسب 3.30 دولارات بالساعة جميعاً يلعبون اللعبة ذاتها، وهي اللعبة التي ينظر إليها بصورة أفضل على أنها منافسة.

وقواعد المنافسة مباشرة. فيجب أن تبدأ من القاع لتصيب بضربة عند القمة. (تماماً مثل وقفة في الاتحاد الكبير، وربما لعب الاتحاد الصغير، وكالوحش

الكبير في جمعية كوكلوكس كلان الذي بدأ في مرتبة منخفضة كحامل رمح، وهو سيد مخدرات نمطي بدأ (بعمل) المخدرات عند زاوية الشارع). يجب أن تكون راغباً في العمل الطويل والشاق بأجور دون الأجور القياسية. وحتى تتقدم في المنافسة، يجب أن تثبت أنك لست مجرد عامل فوق المعدل ولكنك رائع. (تختلف الطريقة التي تميز بها نفسك من أداء مهنة إلى أخرى، طبعاً راقب جي تي أداء جنود المشاة لديه، وكانت قوة شخصياتهم هي التي أخذت بالحسبان ـ أكثر مما كانت في حمام الإظهار مثلاً).

وأخيراً، تأتي إلى الإدراك الحزين الذي لن يوصلك إلى القمة، فإنك سوف تترك المنافسة (ينتظر بعضهم زمناً أطول من الآخرين ـ انظر الممثلين الذين يقومون بعمل النادل عند الطاولات في نيويورك ـ لكن الناس عموماً يفهمون الرسالة في وقت مبكر تماماً).

كان معظم جنود المشاة لدى جي تي لا يرغبون في البقاء كجنود مشاة زمناً طويلاً بعد إدراكهم أنهم لايتقدمون. ولاسيما، عندما يبدأ الإطلاق. فبعد بضع سنوات سلمية نسبياً، تنخرط عصابة جي تي في حرب على المنطقة مع عصابة مجاورة. وأصبح إطلاق النار الهجومي حدثاً يومياً، فبالنسبة إلى جندي المشاة ـ رجل العصابة في الشارع ـ كان هذا التطور خطيراً بصورة خاصة. فقد تطلبت طبيعة العمل أن يتمكن الزبائن من أن يجدوه بسهولة وبسرعة؛ فإذا اختبأ من العصابة الأخرى، فإنه لا يستطيع بيع مخدراته.

وحتى حرب العصابة، كان جنود المشاة لدى جي تي يرغبون بموازنة العمل الخطير وذي الأجر القليل بجائزة التقدم. ولكن كما قال أحد جنود المشاة لفينكاتيش، إنه يريد الآن أن يعوض عن الخطر الإضافي، «هل تقف هنا حيث كل هذا الهراء يستمر؟ لا، صح؟ لذا إن كان سيطلب مني أن أضع حياتي على هذا الخط عندئذ قدم لي المال، يارجل، ادفع لي أكثر؛ لأن ذلك لا يساوي وقتي الذي أقضيه هنا، حيث يتحاربون».

لم يكن جي تي يريد تلك الحرب. وذلك لشيء واحد، لقد أجبر على دفع أجور أعلى إلى جنود المشاة بسبب هذا الخطر الإضافي. والأسوأ كانت حرب العصابات شيئاً فشيئاً بالنسبة للعمل. فإذا بدأت شركة بيرغركنغ وشركة ماكدونالد حرب أسعار، وذلك لكسب حصة في السوق، فإنهم يعوضون ذلك بصورة جزئية في حجم ما يخسرونه بالسعر. (ولايقتل أحد) ولكن في حرب العصابة، تنخفض المبيعات؛ لأن الزبائن يخافون جداً من العنف إلى درجة لا يخرجون معها إلى مناطق مكشوفة لشراء المخدرات. وفي كل طريقة، كانت الحرب مكلفة جداً لجي تي.

إذن، لماذا بدأ الحرب؟ بالواقع إنه لم يبدأها. فقد بدأ جنود المشاة لديه. وتبين أن رئيس تجارة المخدرات لم يكن لديه سيطرة كبيرة على من هم دونه كما يجب، وذلك لأن لديهم دوافع مختلفة.

بالنسبة لجي تي كان العنف إهمال العمل ؛ إنه يفضل ألا يقوم أعضاؤه بإطلاق طلقة واحدة. لكن بالنسبة إلى جندي المشاة كان العنف يخدم هدفاً. فهو إحدى الطرق التي يميز فيها جندي المشاة نفسه. ويتقدم بالمنافسة، فذلك بإثبات همته بالعنف. فالقاتل يحظى بالاحترام والخوف والحديث عنه. وكان حافز جندي المشاة أن يحقق لنفسه اسماً؛ كان حافز جي تي بالنتيجة، أن يمنع جنود المشاة من القيام بذلك، وقال ذات مرة إليفينكاتيش: نحاول أن نقول لهؤلاء الصغار: إنهم ينتمون إلى منظمة خطيرة. ولا يقوم كل ذلك على القتل وحسب. بل إنهم يرون هذه الأفلام والهراء، ويعتقدون أن كل شيء يدور حول تمزيق ذلك الهراء. لكنها ليست كذلك، إذ عليكم أن تتعلموا أن تكونوا جزءاً من منظمة ؛ لايمكنكم أن تقاتلوا طول الوقت، فهذا شيء سيء للعمل.

وفي النهاية، سيطر جي تي، فقد رأى توسع العصابة وكشف عن عصر جديد من الازدهار والسلام النسبي. كان جي تي هو الفائز، ودفع له جيداً؛ لأن قلة صغيرة من الناس استطاعوا فعل ما فعله. كان رجلاً طويل القامة، وسيم المظهر وأنيقاً وقوياً يعرف كيف يستطيع تشجيع الناس. وكان ذكياً أيضاً، ولم يعط المبرر

لاعتقاله، وذلك بحمل مسدس أو أموال. بينما كانت بقية أفراد عصابته يعيشون في فقر مع أمهاتهم. كان لجي تي بضعة بيوت، وبضع نساء وبضع سيارات. ولديه ثقافة العمل طبعاً، ويعمل باستمرار على اتساع هذه المزية. ولهذا السبب طالب بدفاتر بأسلوب الشركات ووجد هذا طريقه إلى سودير فينكاتيش عندما عرض دفاتره على مجلس المديرين ليثبت، وكأن الإثبات كان ضرورياً، مدى فطنته العملية.

ونجح ذلك. فبعد ست سنوات من إدارته لعصابته المحلية، تم ترفيع جي تي إلى مجلس المديرين. وصار عمره الآن أربعاً وثلاثين سنة. وفاز بالمنافسة، ولكن هذه المنافسة ذات أهمية مثل النشر وتأييد الرياضة وحتى هوليود.. بيع المخدرات عمل غير قانوني، بعد كل ذلك. ولم يمض زمن طويل على دخوله مجلس المديرين، حتى كانت عصابة المريدين السود قد أغلقت في النهاية بأمر اتحادي ـ والحكم نفسه الذي أدى برجل العصابة المسمى بوتي إلى تسليم الدفاتر إلى فينكاتيش ـ وأودع جي تي في السجن.

والآن إلى سؤال آخر غير محتمل: ما هو الشيء المشترك بين مخدر الكوكائين والجوارب النايلون النسائية.

في سنة 1939 عندما قدم دوبونت النايلون شعرت نسوة أمريكيات لايحصى عددهن، كأن معجزة قد حدثت تكريماً لهن. فحتى ذلك الحين، كانت الجوارب النسائية تصنع من الحرير وكان الحرير ناعماً وغالياً ودائماً يتوافر لمدة قصيرة. وفي سنة 1941، تم بيع ما يقرب من أربعة وستين زوجاً من الجوارب النسائية المصنوعة من النايلون ـ جوارب أكثر من عدد النساء البالغات في الولايات المتحدة، فكانت الجوارب تشترى بسهولة وكانت جذابة بشكل كبير وعملياً تضاف إلى addictive.

لقد سحب روبرنت العمل الرائع الذي حلم به كل تاجر: لقد جعلت النساء عامة تبدو من الطبقة العليا. وبهذا الاعتبار، كان اختراع الجوارب النايلون للنساء يشابه بشكل ملحوظ اختراع مخدر الكوكائين.

ففي سنوات السبعينيات، إن كنت من الناس الذين يتعاملون بالمخدرات، لم يكن هناك مخدر أعلى من الكوكائين. وكان يحبه نجوم الروك ونجوم الأفلام ولاعبو الكرة وحتى السياسيين المؤقتين، كان الكوكائين مخدراً ذا قوة وزهو. فقد كان نظيفاً وأبيض وجميلاً، وكان الهيروين كئيباً ومسكراً، وضبابياً، لكن الكوكائين زاهٍ وجميل.

وكان مرتفع الثمن أيضاً. ولم يدم الشعور بالزهو طويلاً. مماجعل مستخدمي الكوكائين يجربون قوة المخدر ـ وكانوا يفعلون هذا مبدئياً بتحرير الأساس ـ فأضافوا النشادر والإثير الأثيلي إلى هيروكربونات الكوكائين، أو جعلوا الكوكائين مسحوقاً ناعماً، وحرقوه لتحرير الكوكائين «الأساسي». لكن هذا يمكن أن يكون خطراً. وكما أثبت ريتشارد بريوت بصورة مشهورة ـ وكان على وشك أن يقتل نفسه وهو يحرر الأساس ـ يجب ترك الكيمياء للكيميائيين.

في هذه الأثناء، كان تجار الكوكائين ومحبوه عبر البلاد، وربما في بلاد الكاريبي وأمريكا الجنوبية يشتغلون على طريقة أسلم لتقطير الكوكائين، ووجدوا أن خلط مسحوق الكوكائين في قدر مع خميرة الخبز والماء، ومن ثم طبخ السائل، فتنتج صخور صغيرة من الكوكائين المدخن. وأصبح اسمه (القرقعة) بسبب صوت القرقعة لخميرة الخبز الصادر عند حرقها، والأسماء المحببة التي أطلقت هي: الروك، وكريبتونيت، وكليز أند بيتس، وسكرابيل وحب. وفي أوائل الثمانينيات أصبح مخدر الطبقة العليا جاهزاً من أجل العامة. والآن أصبح شيئان فقط ضروريين لتحويل (القرقعة) إلى ظاهرة: توريد وافر من الكوكائين الخام وطريقة لإيصال المنتج الجديد إلى سوق العامة.

كان مجيء الكوكائين سهلاً، لأن اختراع الكوكائين تصادف مع إغراق السوق بالكوكائين الكولومبي. وخلال أواخر السبعينيات، هبط سعر الجملة للكوكائين في الولايات المتحدة هبوطاً حاداً، حتى وإن كان نقاؤه يزداد. رجل واحد، مهاجر نيكاراغوي اسمه أوسكار دانيلو بلاندون كان محل شك في استيراده

كوكائين كولومبي أكثر من أي شخص آخر. وأنجز بلاندون عملاً كبيراً مع تجار مخدرات جدد من الجنوب ولوس أنجلوس المركزية، حتى إنه أصبح معروفاً باسم جوني آبل سيد للمخدر (القرقعة). وادعى بلاندون فيما بعد أنه كان يبيع الكوكائين؛ ليجمع المال للكونتر التي تشرف عليها وكالة المخابرات المركزية سي آي إي بالعودة إلى الوطن في نيكارغوا. وكان يجب أن يقول: إن وكالة المخابرات المركزية بدورها تراقب عودته إلى الولايات المتحدة، فترك له المجال لبيع الكوكائين مع الشوائب. وهذا الادعاء قد يثير اعتقاداً لايزال حتى اليوم، ولاسيما بين السود في المدينة، بأن وكالة المخابرات نفسها كانت المشرف الرئيس على تجارة (القرقعات) الأميركية.

إن توضيح هذا الادعاء أبعد من مجال (مراجعة ) هذا الكتاب. والصحيح الذي يمكن عرضه هو أن أوسكار دانيلو بلاندون ساعد في تأسيس رابطة ـ بين الكوكائين الكولومبي الكارتلات Cartels وتجار الكوكائين في المدينة ـ التي قد تغير التاريخ الأمريكي. وبوضع كميات كبيرة من الكوكائين بأيدي عصابات الشوارع. بلاندون وآخر مثله أثاروا ازدهار المخدر ازدهاراً كاسحاً. والعصابات مثل عصابة السود في الأمة أعطيت سبباً جديداً للوجود.

وطالما هناك مدن، فهناك عصابات من هذا النوع أو من نوع آخر. ففي الولايات المتحدة، كانت العصابات بصورة تقليدية نوعاً من منزلة في منتصف الطريق للمهاجرين الجدد. ففي العشرينيات كان في شيكاغو وحدها أكثر من 1300 عصابة في الشوارع، يهتمون بكل متكئ عرقي وسياسي وجنائي يمكن تصوره. وكقاعدة، قد تثبت العصابات أنها أفضل كثيراً في كسب جرم من كسب المال. وتخيل بعضهم أنفسهم كشركات تجارية، وتخيل قلة معهم ـ المافيا والأشهر ـ كسبت أمولاً بالواقع (على الأقل بالنسبة للموجودين في القمة). لكن معظم أعضاء العصابات رجال عصابات صغيرة، كما تؤكد الكليشة.

وعصابات الشوراع من السود التي ازدهرت ولاسيما في شيكاغو: والتي كان أعضاؤها بمئات الألوف في سنوات السبعينيات، وتكونت من نوع من المجرمين، الصغار وخلافه، الذين أمضوا الحياة في المناطق المدنية، وكان جزء من المشكلة أن هؤلاء المجرمين لم يبد أنهم اعتقلوا. كانت الستينيات والسبعينيات، كما يذكر، وقتاً عظيماً ليكونوا مجرمين في الشارع في معظم المدن الأمريكية. وكان احتمال العقوبة احتمالاً صغيراً جداً ـ وكان هذا Heyday لنظام قضائي ليبرالي وحركة حقوق المجرمين ـ وذلك ببساطة لم يكلف كثيراً لارتكاب جريمة.

ولكن في الثمانينيات، بدأت المحاكم بقلب ذلك الاتجاه جذرياً. فقطعت حقوق المجرمين ووضعت إرشادات لأحكام أشد في مكانها. وأودع الكثير من العصابات السود من شيكاغو في السجون الاتحادية، وبمصادفة سعيدة، كان بعض زملائهم السجناء من أعضاء عصابات مكسيكية بروابط حميمية مع تجار المخدرات الكولمبيين. وفي الماضي، اشترت عصابات السود مخدراتهم من وسيط، هو المافيا التي -كما حدث- كانت عندئذ تلاحقها قوانين الحكومة الاتحادية الجديدة. ولكن عندما وصلت (القرقعة) إلى شيكاغو، كان رجال العصابات السود قد أوجدوا العلاقات لشراء الكوكائين مباشرة من التجار الكولمبيين.

لم يكن الكوكائين طبيعياً مطلقاً في منطقة الأقلية: فكان باهظاً جداً. لكن هذا كان قبل اختراع الكوكائين. فهذا المنتج الجديد مثالي لأصحاب الدخل المنخفض، للزبون من مستوى الشارع. فإن احتجت إلى ذلك المقدار الصغير من الكوكائين النقي، فإن خبطة من (القرقعة) تكلف القليل من الدولارات فقط. فقوتها العالية تصل إلى المخ في بضع ثوانٍ فقط، ومن ثم تبهت بسرعة؛ فيحتاج المستخدم إلى أكثر من البداية، المخدر المقدر له؛ ليكون نجاحاً كبيراً.

من الذي يبيع المخدر أفضل من آلاف الأعضاء الصغار من كل تلك العصابات في الشارع مثل رجال عصابات السود في الأمة؟ امتلكت العصابات منطقة ـ كان العقار

بالجوهر عملهم الجوهري ـ وكانوا يهددون بإبعاد الزبائن من التفكير بنشره. وفجأة تطورت عصابة شارع المدينة من نادي المراهقين باتجاه شركة تجارية حقيقية.

وقدمت العصابة أيضاً فرصة العمل لزمن طويل، وقبل المخدر، كان من المستحيل كسب العيش في عصابة الشارع. وكان عندما يحين الوقت ليبدأ رجل العصابة في الكسب يبدأ بإعالة عائلة، فإنه قد يجب عليه المغادرة. لم يكن هناك شيء كهذا لرجل عصابة عمره ثلاثون عاماً: كان يعمل إما في وظيفة قانونية وإما ميتاً أو في السجن، ولكن مع المخدر؛ كان هناك مال حقيقي لكسبه. وبدلاً من الانتقال وشق طريق لرجل عصابة شاب حتى يصعد، والمحترفون بقوا. كان هذا يحدث كموضة قديمة لأعمال تدوم طول الحياة ـ عمال مصانع خاصة ـ إلا أنهم كانوا يختفون. في الماضي، استطاع الرجل الأسود ذو المهارة المتوسطة في شيكاغو أن يكسب أجراً شريفاً كأن يعمل في معمل. وعندما يضيق الخيار، تجارة المخدرات تبدو أفضل. إلى أي مدى كان الأمر صعباً؟ كانت المادة تؤدي إلى الإدمان بأن الأحمق يستطيع بيعها.

من يهتم إذا كانت لعبة المخدرات منافسة يستطيع فيها قلة من الناس أن يكسبوا؟ ومن يهتم إن كانت خطرة جداً ـ تبرز هناك على الزاوية، يبيعونه بسرعة وبشكل مجهول، كما يبيع ماكدونالد الهامبرغر، غير عارف أيّاً من الزبائن، ويتساءل من يمكن أن يأتي لاعتقالك أو سرقتك أو قتلك؟ ومن اهتم إن كان منتجك يجعل من هم بعمر اثنتي عشرة سنة والجدات والوعاظ مدمنين جداً، لدرجة يتوقفون معها عن التفكير حول أي شيء ما عدا الجرعة الآتية؟ ومن يهتم إن قتل المخدر المنطقة؟.

بالنسبة للأمريكيين السود كانت العقود الأربعة مابين الحرب العالمية الثانية وازدهار المخدر قد أعطت علامة تحسنٍ درامي، ولاسيما منذ تشريع الحقوق المدنية في منتصف الستينيات، إذ اتخذت إشارات التقدم الاجتماعي المريبة جذورها بين الأمريكيين السود.

كانت الفجوة بين دخل البيض والسود تتقلص. وكذلك كانت الفجوة بين علامات اختبارات الأطفال السود وعلامات الأطفال البيض. وربما كان معظم الكسب المشجع في وفيات الأطفال. وحتى وقت متأخر حتى 1964، كان الطفل الأسود يحتمل أن يموت ضعف ما يقدّر لموت الطفل الأبيض، وغالباً ما يكون ذلك بسبب أساسي هو الإسهال أو التهاب الرئة. وبمستشفيات منفصلة، تلقى العديد من المرضى السود ما توصل بعناية العالم الثالث. ولكن تغير ذلك عندما أمرت الحكومة الاتحادية المستشفيات بألا تميز: وخلال سبع سنوات فقط، كانت نسبة وفيات الأطفال السود قد انخفضت إلى النصف. وفي الثمانينيات كان كل جانب من الحياة يتحسن بالنسبة للأمريكيين السود، ولم يظهر التقدم أي إشارة عن توقفها.

**ومن ثم جاء المخدر**

بينما كان استخدام المخدر بالكاد ظاهرة سوداء فقط، تصيب المناطق السوداء بشكل أشد من الكل. ويمكن أن يرى الدليل بقياس المؤشرات ذاتها للتقدم الاجتماعي الموضوعة أعلاه. فبعد عقود من التقهقر، بدأت وفيات الأطفال السود بالتحليق في أعوام الثمانينيات، كما فعلت نسبة الوزن المنخفض للأطفال وتخلي الوالدين. واتسعت الفجوات بين طلاب المدارس السود والبيض. وأعداد السود الذين أرسلوا إلى السجن زادت ثلاث مرات، وكان المخدر مدمراً بصورة درامية إلى درجة كانت نتيجتها حول المعدل بالنسبة إلى جميع السود الأمريكيين، وليس بالنسبة لمستعملي المخدر أو عائلاتهم، فإنك سترى أن التقدم للمجموعة بعد الحرب لم تتوقف، ولكن غالباً ما تراجعت بقدر عشر سنوات إلى الوراء.

لقد أصيب الأمريكيون السود بسبب الكوكائين أكثر من أي سبب مفرد آخر منذ جيم كرو.

ومن ثم كانت الجريمة، خلال مدة خمس سنوات، فقد كان معدل الانتحار بين الشباب السود المدنيين قد ارتفع أربع مرات. وفجأة كان من الخطر أن يعيش في أجزاء من شيكاغو أو سانت لويس أو لوس أنجلوس، كما كان العيش في بوغوتا.

كان العنف المرتبط بازدهار المخدرات متنوعاً ولا هوادة فيه. وتصادف مع موجة جريمة أمريكية أوسع أيضاً، كانت تتجمع على مدى عقدين من الزمن. ومع أن ازدياد موجة الجريمة هذا قد سبق المخدر بزمن طويل، وقد فاقم المخدر الاتجاه، بحيث توصل علماء الجريمة إلى إيحاء صريح في تنبؤاتهم. حذر جيمس آلان فوكس، وهو من أكبر خبراء الجريمة اقتبسته على نطاق واسع الصحف الشعبية، من «حمام الدم» القادم من عنف الشباب.

لكن فوكس وموردي الحكمة التقليدية الآخرين كانوا مخطئين، فحمام الدم لم يتحقق ومعدل الجريمة بالواقع بدأ يهبط ـ بطريقة غير متوقعة ودرامية وكلية، بحيث الآن ـ على بعد بضع سنوات، صعب تقريباً أن نتذكر القبضة التي حطمت تلك الموجة من الجريمة.

**لماذا هبط المعدل ؟**

بسبب بضعة أسباب، ولكن سبباً منها هو مدهش أكثر من الأسباب الباقية. وقد يكون أوسكار دانيلو بلاندون، المسمى جوني آبل سيد للمخدر قد يكون، المحرض لتأثير التماوج، وفيها يسبب شخص واحد بأعماله محيطاً من اليأس. ولكن من دون معرفة لأي من الأشخاص. فإن نتيجة أخرى تموج قوية بصورة ملحوظة ـ وهذا التحرك بالاتجاه المعاكس ـ قد بدأت بالحركة الآن.

لقد حذر ليفيت في ورقته غير المكتملة والتي نشرت في سنة 2001 له ولزميله المشارك جون دونوهيو من أن مكتشفاتهما «يجب ألا يساء تفسيرها على أنها موافقة على الإجهاض أو على أنها دعوة لتدخل الدولة في قرارات خصوبة النساء». وإنهما يشيران إلى أن الجريمة يمكن ضبطها عن طريق تأمين بيئة أفضل لأولئك الأطفال الذين هم عرضة لمخاطر كبيرة في المستقبل.

ولقد نجح هذا الموضوع ذاته في أن يؤذي الجميع تقريباً. فقد أثار غضب المحافظين تفسير الإجهاض على أنه أداة لمحاربة الجريمة. وكان الليبراليون مشدوهين؛ لأن أولئك النساء السوداوات والفقيرات تم فرزهن. واشتكى الاقتصاديون بأن طريقة ليفيت لم تكن سليمة. ولما تجمهرت وسائل الإعلام على قصة جريمة الإجهاض. كان ليفيت محل الهجوم المباشر. وتمت تسميته (مدعي نظرية) (دعاه بذلك المحافظون والليبراليون سواء بسواء)، والمؤمن بالتمييز العرقي وبالشر الصريح.

وفي الواقع، يبدو أنه لم يكن إحدى هذه التسميات. فاهتمامه السياسي قليل وحتى اهتمامه بالأخلاق أقل. وهو لطيف هادئ الطباع وتصعب إثارته وواثق لكنه غير مغرور، يتلعثم كثيراً في كلامه، ومظهره يدل على أنه معتوه كبير؛ بقميص قطني مخطط بشكل مربعات وذو أزرار، حتى الأسفل وبنطال خاكي وحزام مجدول وحذاء بني اللون مقبول. ومفكرة جيبه من ماركة المكتب الوطني للأبحاث الاقتصادية. تقول زوجته جانيت: «أتمنى لو أنه يقص شعره أكثر من ثلاث مرات في السنة، وأنه لو لم يزل يلبس النظارات ذاتها التي اشتراها قبل خمس عشرة سنة والتي لم تكن شائعة في ذلك الوقت». كان لاعب غولف جيد في المدرسة الثانوية، لكن جسمه نحيل لدرجة يسمي نفسه «أضعف إنسان على قيد الحياة». ويطلب من جانيت أن تفتح الجرار حول البيت.

لاشيء في مظهره أو سلوكه، بكلمة أخرى، يشير إلى أنه قاذف لهب.

**مجلة النيويورك تايمز**،3 آب 2003